

الجوسق الجبلّي

للقصصيّ الفرنسي جي دي موباسان
بتلم السكيد كمال الحريّ

ترحف على الجوسق بقضها
وقضيضها ، فتغمر الباب
والنوافذ ، وتُجلبب السطح
والجدُر ، وتترك الرجلين في
قبر يارد موحش ، كفنّه
هذه الثلوج الرحبة الآفاق -
ففي هذه السنة ، وقد أقبلت

طلائع الشتاء ، وخلت الطرق من العابرين والسائحين ،
تحتم على أسرة «هوسار» مبارحة الجوسق كعادتهم
كل شتاء ، فكنت ترى ثلاثة بفال تترك الفندق
الجبلّي ، مُوقرة الظهر بالملايس والأمتعة ، مُحملة
بالبُيَّاب والأحزمة ، يستاقها أبناء الموسيو هوسار
وتبعمهم الأم جان هوسار وابنتها لوز ، وقد امطنا
بغلاً رابعاً ، على حين سار الأب «هوسار» على
أثرهم مصحوباً بدليليه الأمينين ، وقد كان عليهما
حراسة هذه القافلة ورعايتها حتى حدود القمة التي
تبتدىء منها طريق «لوه شي»

أحدقوا أولاً بالبحيرة الصغيرة المنجمدة ،
فطالعت أبصارهم أمواها البراقة وجليدها المتألق ،
وهو ياتمع في أعماق سهل ضيق يمتد وسيماً أمام
الجوسق . ثم ساءروا الوادي المتلألئ . وقد التمع في
جنباته سناء الثلج ، وشع في حواشيه بريق الجليد ،
وتحلفت حوله قمم بواذخ وذرى شوامخ غرقت
كلها في بحر لحي أبيض من جليد وصقيع

وكانت أشعة الشمس وهي تسترسل على بسط
الثلج الوسيمة ، وحزم النور وهي تنسكب على صحراء
الجليد البديعة ، تنعكس وتتراقص ويموج بعضها
في بعض ، حتى لتكاد تخطف البصر وتمشي النظر

لم يكن جوسق جاورانباش ليمتاز من بقية
الجواسق «الألبية» في نسق أوطراز ، فثله كثير
على أقدام الجليد وفي حدود الجبل الصخرية ، التي
تؤدي إلى ذرى الأب الثلجية ، إنما كان يفرده عن
أنداده أنه في الطريق المنتهية إلى «جه سي» ، وأنه
الملاذ الذي يقف إليه السائحون في غدوم ورواحهم
كان يظل نصف السنة مأهول الربيع بسكانه ،
مأنوس الساحة بأهله ، حتى إذا ابتنى الثلج قبابه
في الوادي ، وأقام الجليد سدوده على مسالك «لوه شي»
ظعن عنه «الأب هوسار» مع امرأته وأولاده ،
تاركاً على حراسته دليلين أمينين : هما «كاسبار هاري»
الكهل ، و«أورليك» الشاب ، ثم «سام» كاب
ضخم من كلاب الجبل . ففي هذا السجن الثلجي
الموحش كان يقيم الرجلان حتى إقبال الربيع ،
وايس لديهم من متع الحواس ومرأى النظر غير
هضب من الثلج لا تحدّ ، وكثب من الجليد
لا تنتهي ، وغير القمم الشمّ اللامعة ، والذرى البيض
الساطعة ، تملطق هضبة «بالمورن» بسور من زمهرير
وصقيع . لقد كانوا طيلة شهور الشتاء في حصار
هائل من جيوش الثلج اللجبة : تحديقهم من كل
مكان ، وتأخذ عليهم كل قطر ، ثم لا تكتفي حتى

السطح مشعشعة الضوء

وبينما كانوا يقتربون من حنية «جهى» حيث ينحدر الطريق إلى لوه شى ، انكشف لهم الأفق الرحب عن واد سحري رائع ، لا يتمثل لخيال ولا يتراءى فى حلم : هو وادى الرن ، توشى جنباته أطرزة الشفق ، وتموّه حواشيه ألوان قوس قزح . وعلى البعد من هذا الوادى الحبيب ، حيث يسافر النظر فى مسافة لا تنتهى ، كانت تقوم طائفة من قنن جبال ثلجية ، مختلفة التكوين متباينة الشكل : فهذه قمة ميشابل قد طعن قرناها فى أديم السماء ، وتلك كتل ويسيهوارن الهائلة تملأ الرحب ، وهاتيك أهرام «سيرفين» تسد الفضاء ؛ وهناك تحت هذه المشارف العالية والقلاع المرتفعة ، تراءت لهم قرية لوه شى ، وهى تقبع فى هاوية هائلة بعيدة كانت تظهر فيها أبنيتها ومساكنها كأنها حبات من الرمل الأبيض نثرت فى مغارة واسعة سوداء

وهنا تقف البغال على جانب الطريق المتعرجة المتعوجة التى تتقاطع وتنحوى ، وتتمعج وتتلوى ، حتى ينتهى بها المطاف إلى هذه القرية المحبوبة المستترة ؛ وتقفز المرأتان فى خفة قرويات الجبل على بساط الثلج ثم يتبعهما الزوج «هوسار» وهو يقول للدليلين :

— إلى اللقاء أيها الصاحبان فى السنة المقبلة ، إنى لأعنى لكما إقامة هنيئة هذا العام ، ويتمانق المشيمون والظاعنون كل بدوره ، حتى إذا جاءت نوبة أورليك الدليل الشاب غمغم فى أذن الأنسة لوز وهو يعانقها :

— لانسى أن هناك فى الأعلى رجلين وحيدتين . فتجيب الأنسة فى همس : كلا ، كلا . وحين أرف الترحل أشار الأب بيديه تسليمه الوداع ، ثم هبط

لم تكن نائمة تتحرك وسط محيط القمم الثلجية ، ولا ركز يحس خلال هذه الصحراء الجليدية ، إنما هو السكون العميق والعزلة الساكنة تضربان بجرائهما على كل شى

وتستمر القافلة فى تسيارها ، فإذا «هورليك» الدليل السويسرى ذو السيقان الطويلة المنتصبه يخلف وراءه زميله الكهل «كسبار» والأب هوسار ليلحق بالبغال الأمامية التى كانت تقل الأم جان وبناتها لوز

وتنظر الفتاة إليه يدلف نحوها ، فتكاد تهيم باستدعائه بمين فيها التوسل والحزن . كانت كاعبا قروية شقراء . فى خدودها النضر لون الحليب ، وفى غدائرها الصفرة موجات باهتة لالون لها ، صبغتها بها إقامتها الطويلة وسط الجلامد والثلوج ، ووصل الفتى إليها ، فوضع يده على كفل دابتها وراح يطابق خطاه الشديدة على خطاها الوئيدة . وتأخذ الأم جان فى الحديث إليه عن شئون الجوسق وتدير الفندق الجبلى الذى وكل إليه ورفيقه أمر حراسته ورعايته . كانت هذه هى المرة الأولى التى يعتزل بها العالم فى أعلى هذا الجبل الثلجى ، على حين أن زميله الكهل كان قد استتم فى هذه السنة خمسة عشر شتاء قضاها سمر الثلوج أيف الجليد فى هذا الجوسق القصى النأى الذى يدعونه چاورانباش . لذلك كان الفتى السويسرى أورليك يصنى لثعالم الأم وأوامرها دون أن يفقه لها معنى . وبينما كان يجيب الأم من حين لآخر قائلاً :

— أجل أيتها السيدة ، كما تشائين أيتها الأم «هوسار» ، كانت نظراته عالقة بوجه الفتاة لاريم وبلغوا بحيرة دوب فهدت لهم فى غور الوادى السحيق الضيق بحيرة مستطيلة الصفحة منجمدة

وفي صبيحة اليوم التالي كانت الساعات تمر ثقيلة
مستمة أمام أورليك ، وبينما السكهل كاسبار يدخن في
سرور أمام الموقد ، كان الشاب أورليك يطل من
خلال النافذة على جبال الثلج وهي تلتهم وتنهج ،
وكشبان الجليد وهي تضيء وتموج

ثم خرج أورليك من الجوسق ، فأعاد رحلة
البارحة ، وجعل يتعرف على الأرض آثار حوافر
البغال التي راحت بلويز الشقراء . حتى إذا بلغ
منشعب الجبل ، وشارف الطنف الذي يطل على قرية
لوه شى انطرح على شفير الهاوية وراح يرقب في نشوة
ولذة بيوتها البمثرة . لم تكن جيوش الثلج قد دهمت
تلك البئر العميقة بعد لأن غابات الصنوبر الشجراء ،
وأدواح السرو الخضراء ، كانت تقوم كالجند المدافع
عن هذا الضيق الذي لا ذت به القرية ؛ وكان
الثلج لا يسهه إزاء هذا السور من الشجر إلا أن
يتساقط صاعراً على أقدام الأدواح ، دون أن يجد
ثمة ينحدر منها لغزو القرية . وإذن فإن لوز الجيلة
هناك الآن في إحدى هذه الأمكنة الدكناء . كم
يقوم بنفس الفتى أن يهبط إليها ما دام ذلك بمكنته
هذه اللحظة ! ولكن وأسفاه لقد انحجبت
الشمس وراء قمة ويلسترويل الهائلة

وآب الفتى إلى الجوسق فألقى الأب كاسبار
ينفث دخان سيجاره ، وحين شاهد السكهل رفيقه
عائداً قدم إليه ورقاً للعب ، ثم جلسا إلى طاولة وجهما
لوجه وطفقا يلعبان « البرسيك » حتى إذا سئما
اللعب انكفأ إلى المطبخ فطما ثم رقدا

وتوات الأيام على هذا القرار : مضية باردة من
غير ثلج جديد ، وعقيب كل ظهر كان الأب كاسبار
يروح عن نفسه بصيد النسور الجيلة ، أو قنص
نوع من المصافير يقحمها طيشها هذه الجبال ، على

وأسرته المنحدر ، وما هي إلا دقائق حتى ابتلعهم
الطريق بين طواياه

وينشئ الدليلان إلى الجوسق الموحش جنباً إلى
جنب ، بخطوات ثقيلة وصمت طويل . لقد انتهى
كل شيء ، وسيظلان خمسة أشهر منعزلين في هذه
الجبال الثلجية المتناثية الأرجاء ، وراح السكهل يقص
حكاية حياته الجيلة على زميله الشاب . لقد كان
قائماً هذا الجوسق بصحبة رفيق قديم قدمت به
الشيخوخة عن معاودة هذه الحياة ، لأن حادثاً من
حوادث القدر قد ينكب في جسمه الموهون بين
هذه الجبال الثلجية . لم يتطرق السأم إلى نفسيهما ولا
أفسد النزاع ما بينهما من الود في ذلك العام . وفيه
النزاع والشجار ، وكل يضطلع بأكلانه ويقوم
بواجبه ١٢ على أنه بالرغم مما كان يحدق بهما من
نطق السامة والوحشة ، فقد خلقا لنفسيهما ملاهى
للفراغ ومسليات للحواس . كان أورليك يصنع
لقول زميله والطرف خفيض والنفس والهة والفكر
شارد ، يفكر في أوائك الراجلين الذين يحملوا منذ قليل
ويقرب الرجلان من الجوسق ، فاذا نكتة
سوداء لا تكاد تبصر ، تسجد في خشوع تحت أقدام
الثلج الجبارة ، وتتمرغ في ضراعة على ساحل محيط
الجليد الثلج الواسع

ويلجان باب الجوسق فيتلقاهما « سام » وهو كاب
ضخم جبلى ، ثم يتمسح بهما ويقرع الجو بنباح
صاخب ، ثم يتوالب عليهما في نشاط ومرح ، ويقول
السكهل كاسبار وقد استقر به المكان :

— وطن نفسك يا صديقي على أعمال المنزل ،
فليس لدينا نساء لإدارته . نحن الآن في حاجة إلى
الغداء ، فهيا قشر البطاطس . ثم جلس الاثنان على
مقعد خشبي وأنشأ يطبخان الحساء

نفسهما على مكروه هذه الحال ، وأخذها باحتمال
حياة الجبال

وفي بعض الأحيان كان الأب « كاسبار »
يتنكب بندقية وينطلق بها إلى صيد الوعول فيعود
منها من حين لآخر بطائفة صريعة . ولا تسلم
حين ذاك عن الوليمة الفاخرة التي ينعم بها الرجلان
في جوسق جاورانباش على شرف هذا الصيد

ففي أحد الأيام انطلق كاسبار إلى الخلاء لهذا
الصيد ، وكانت درجة الحرارة ترقم الثانية عشرة
تحت الصفر ، والشمس لم تبرز خدرها بعد . وظل
أورليك الشاب راقداً حتى الساعة العاشرة ، فلقد
كان نؤوماً لا ينعمة من متابعة النوم إلا خجله من
رفيقه الذي اعتاد أن يفيق باكراً . وتبلغ الساعة
العاشرة فيستيقظ صاحبنا ويتناول إفطاره مع كلبه
سام الذي ألف الرقود بجانب الموقد سحابة النهار
وسواد الليل ؛ ويفرغ أورليك من الطعام ، فإذا
الوحشة ترين على قلبه والوحدة تسود نفسه ، وإذا
هو يحس فراغ زميله ويأسى لفراقه هذه الساعات
القصار ، ثم ... ثم يمد يده إلى ورق اللعب فلا يجد
من يشاركه فيه . وعلى هذا فقد خرج من الجوسق
ليروح عن نفسه ولينجو من وحدته بضع ساعات
قبل أن يعود زميله من صيده

كان الثلج قد ملأ جميع الأودية والأهضبة ،
وساوى باليفاع التلاع وبالنجاد الوهاد ، فلم يعد
يطالع العين منظر البحيرتين الزجاجيتين ، ولا يلفت
النظر بروز الصخور السوداء ؛ فالقعم الشم خائضة
لحج الناج ، والقلال الهائلة متكفنة الجسم بكفن
الجليد لا يفصل قمة من قمة إلا أقبية هائلة منتظمة

من نالج ، أو حفر واسعة ممردة من جليد
ويتوجه أورليك صوب العين ، ويسرع خطاه
إلى لوورن ضارباً جلامد الصخر بمضاه الحديدية

حين كان أورليك يعيد بداءه على عوده أو عوده على
بدئه فيقصد إلى ذلك الطاف الذي يشرف على القرية ليحلم
هناك ساعة أو ساعتين ثم يعود إلى الجوسق فيلمب
الورق أو « الدمينو » مع زميله كاسبار ، ويكسب
أو يخسر هئات قليلة كانا يجملان عليها مدار اللعب
لبعث نشاطه وإذكاء حدة

ففي ذات صباح وقد استيقظ الكهل قبل زميله
الشاب ، دعاه إلى النافذة ثم أشار إلى غمامة شهباء
ترحف إليهما في سرعة وهول ، وتأخذ على الجو
منافذ الأفطار ، وما هي إلا أن أقبلت خرساء عمياء
حتى انحطت بكلاهما على الجوسق المسكين ، وإذا
فرش الناج الوثيرة الثقيلة تغطي الباب ثم ترحف
على النوافذ ثم تصعد إلى السطح فيفرق الجوسق
كله في موج من الناج والصقيع

استمرت هذه العاصفة الثلجية أربعة أيام
بلياليها ، حتى إذا انفثأت حدتها وهذا غضبها تحتم
على الدليلين — كي يريا نور الحرية — أن يزحزحا
عن الباب والنوافذ الثلج المركوم ويحتفرا في صخور
الجليد مسالك للمرور ، ويتم لهما ذلك في بضعة أيام
فيلزمان الجوسق ، ويقبعان أمام المدفأة إلى أن يأذن
الله بفرج من عنده

لم يكن أحد منهما ليفتات على زميله في محاولة
أعمال المنزل أو ممارسة شؤون البيت ، فقد أخذ
أورليك الشاب على عاتقه غسل الملابس وتنظيف
الأواني وتكسير الحطب ، واستقل الكهل بشؤون
الطبخ والطهي ؛ على أن هذه الأعمال المنزلية الهينة
كان يتخللها أوقات طويلة للعب الورق ورصف
« الدومينو »

أبدأ لم ينشب بينهما خصام ، أو يتحدث جدل ،
أو تسوء كلمة ؛ وكيف يختصمان وكلاهما عادي الطبع
ساكن القصد حلو الشئائل ؛ ثم هما فوق ذلك راضا

وانقلب المسكين إلى الجوسق يائساً فجلس إلى
الموقد يصطلى وقد ذهبت به الأظانين والشكوك
كل مذهب

أيمكن أن يكون كاسبار ضل طريقه
وتشابهت عليه مسالكه؟ أميحتل أنه قابع الآن في
أحدود عميق من الجليد كسير الرجل أو مهشم
الذراع؟ يرجفه القر وتلول فوق رأسه ثواكل
الريح الصاردة؟ أميجوز أنه يوالى الصرخات ويتابع
الاستغاثات فلا يجد صريحاً ولا منقذاً؟ وكيف
ينقذه إنسان أو يعدله بشر يداً والجبال موحشة
عالية، والوديان رحبية خالية لا تتحرك فيها نامة
ولا يتنفس ذو رثة

ومع هذا فقد أجمع «أورليك» أمره على
البحث عن صاحبه إن أقبل نصف الليل ولم يؤب
من صيده. وبأخذ في تهيئة نفسه وتحضير زاده
وعتاده فيتناول كلاً به الفولاذى ويتمنطق بحبل متين
دقيق ويمتحن صلابة قضيبه الحديدى ومقاومة فأسه
المعد لحفر جلامد الجليد. ثم ينتظر إلى نصف الليل
بينما الحطب يتأثر في الموقد والكلب يغط على ضوء
النار، والساعة ترسل في الجو خفقات «بندولها»
الراعب الراعى. كان الفتى يرهف السمع إلى عويل
المواصف وهى تلطم وجوه القمم البعيدة، ودمدمة
الريح الغاضبة وهى تصفع جدران الجوسق ونوافذه؛
حتى إذا دقت الساعة الثانية عشرة استوى على قدميه
وأيقظ كلبه «سام» ثم فتح الباب وانطلق في
الظلمة لجهة ويساترويل. وفى خلال خمس ساعات
كان يصعد كثيراً ثم يهبط إلى هوة ثم يعود ويتسلق
تلعة أو جبل من ثلج أو جليد. وفى كل ذلك
لا يفقل عن تعليق كلابه فى صخور الجليد أو احتفار
طريقه بين جنادل الثلج، أو تعليق حبله بكلابه

الصلبة ملتصقاً ببصره تلك النكتة السوداء المتحركة
التي كانت تلوح على البعد بين تلك البسط الثلجية
الواسعة. وإنه كذلك وإذا الشمس تتضيف
للمغيب فتتضر خدود الثلوج البيض بلون الورد،
ثم تدع للرياح اليابسة السافية سبيلاً إلى أحضان
الثلج تنشر رغاه وتبعثر نثاره وتطوح بمندوفه
أباديد، ويطلق «أورليك» نداء حاداً طويلاً مهترأً
فاذا رجع الصوت يدوى ويتراجف خلال سكون
مهيّب هائل، وإذا رنينه يسافر إلى تلك الأمواج
الساكنة الساكنة من الثلج، واللجج العميقة
السحيقة من الجليد، ثم يضل ويفنى في يهماء رحبية
مثنائية من الصقيع. وأرعدت فرائص أورليك
لهذا السكون المروع فحيل إليه أن ذلك الصمت
الموحش، وتلك الرياح المتجلدة، وهاتيك الوحشة
الرائثة، تنفذ إلى كيانه وترزّل جسمانه، ثم تجمد الدم
فى عروقه وتجمد منه كائناً ساكناً لا يتحرك
ولا يريم. فلم يجد وسيلة للنجاة من وحشته وخوفه
إلا أن يتندرجوسق، فمضى إليه وهو يردد فى نفسه:
إن «كاسبار» قد عاد من صيده ولا شك، وكأنى
به قد جالس إلى مقعده أمام الموقد المضرى وتحت
قدميه ما اصطاده من وعول. وبلغ الجوسق فلفت
نظره أن خيطاً من الدخان ولو دقيقاً لا يتصاعد
من المدخنة، ففتح الباب فى سرعة وقلق، وإذا
الكلب «سام» يذلف إليه ويحييه ولكن أين
هنرى كاسبار؟ ويضرم الشاب النار وينضج الحساء
أَمْلاً أن يعود رفيقه كاسبار فيجد الطعام مريضاً
والجو دافئاً، لكنه لم يعد. فكان «أورليك» يخرج
من آونة لأخرى كي يتبصر شبحه يذلف أو يسمع
صوته يدوى. ولكن الليل أقبل بظلمته المشوبة
بلاألاء الثلج ولم يعد «كاسبار»

لحافاً صغيراً ، ثم التصق بكلمته المتعب كي يدراً عن جسمه زحيرير البرد الذي بات ينفذ إلى عروقه طيلة الليل . لم يغمض له جفن في تلك الحفرة الصاردة الظلمة ، لأن الأشباح الخفيفة كانت تراود عينه وخياله ، والريح اللاذعة ترعد أطرافه وأوصاله . وبهض صاحبنا مع الفجر مُصَّاب الأطراف من القر ، مجذ العروق من البرد ، خافق القلب مرعد الفرائص ، يظن كل همسة أو رعدة أو هزة نذير موته في هذه الأصقاع الثلجية التي لا يعيش فيها إنسان ويبلغ « أورليك » منزله هو وكلمته الأعرج ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، فإذا المكان خال موحش ، فياً كل الشاب طعامه ثم ينام تعباً منهوكة لا يفكر في شيء . استغرق في نوم طويل عميق غلاب مما قضاه البارحة من عناء ووعثاء ومشقة ، ولكن أترأه يحلم ؟ ! أترأه يسمع هتفة طائف النوم الذي يهتف في أذن النائم المجهود والحالم المكدود ؟ إنه ليسمع هذا النداء الضاح الصارخ بجميع حواسه ومشاعره : نداء هائل مزعج ما إن ينزلق من أذنيه حتى ينفذ إلى أعماق أعصابه المرتجفة الثائرة ، وإذا فأن صوتاً يناديه ويدعوه إليه ، ويهيب به من النوم ؟ ذلك حق لا ريب فيه ، وهنا يذعر الشاب ، فينتفض من سريره إلى الباب ويروح يصرخ عالياً :

— أهو أنت يا كاسبار ؟ ولكن أحداً لم يجبه ، وصوتاً أو ركزاً لم يتأد إلى سمعه ، إنما هو الليل الطويل المعتكر وشعشة الثلوج المتعاكسة ، وأنين الرياح النادبة ، ثم صفير العواصف الغاضبة على الجبال والوهاد والحفر ، ثم سكون الموت ووحشة الفناء ، ولا شيء بعد ذلك . ويصرخ « أورليك » : كاسبار ، كاسبار ! ثم يصني ويصيح ، ولكن كل شيء يظل أخرس لا يجيب

القولاذي إما لإصماده بنفسه أو نزوله ، أو لجرّ أو إنزال كلمته المسكين . وأخيراً وفي الساعة الخامسة بلغ القمة التي اعتاد زميله « كاسبار » أن يختلف إليها لصيد الوعول . فجلس هناك ينتظر تبليج النور كانت السماء حين ذاك مشعشة الأديم مستضاءة الصفحة قليلاً ، ولكن على حين غرة أضاء الآفاق نور وهاج لم يعرف مصدره فغمرت الجبال بسناه اللالآء ، وغرقت الكثبان بنوره الوضاء ، ثم أخذ هذا الضوء يمتد ويفترش حتى تلالأت جبال الثلج وتلاع الجليد بسناه الوهاج الرجاف ، إلى مسافة مائة ميل ، وكان يخيل للعين المنبهة ، أن ليس شمساً واحدة تلك التي تطلع كل هذه الأضواء ، وإنما بلورات الثلج ، وصرايا الجليد تبتق كل واحدة منها شمساً لا تمتد وأنواراً لا تحد . ثم أخذت قم الثلج العالية البعيدة تتراوى للنظر واحدة بعد أخرى بحملها الحمر الوردية التي نسجتها عليها خيوط الشمس ، فاستحال الكون كله إلى سنى وسناء وجمال وسحر ، وينسرح أورليك بعد إذ أخذ حظه من الراحة ، في الأودية والهضاب ، والأخاديد والشعاب ، محنى الظهر يتعصف الآثار ويتلمس مواقع الأقدام ، وهو يقول لكلمته :

— ألا فتش أيها الكلب الضخم عن آثار « كاسبار » سيدك . فيرود الكلب ويجوس ، ويتخلل الحفائر والمضائق والمغائر والأخاويد ثم ... ثم لا يجد لا هو ولا صاحبه شيئاً

ويقبل المساء ، فإذا صاحبنا هو وكلمته قطعاني يومهم مسافة خمسين ميلاً ، وإذا هما من الإجهاد والتعب بحيث لا يقويان على مواصلة السير إلى الجوسق البعيد ، فيلجآن إلى حفرة منعزلة في قاصية الوادي ، ويبيتان فيها ليلتهما وقد أضنى « أورليك » عليه وعلى كلمته

وصامت صمت الموت ، فتستقل رواعد الذعر عظام الشباب وينكفيء إلى مُنمزله الموحش ، فيسقط للواليع ويحكم قفل الباب ، ثم يتهاوى واجفاً راجعاً على كرسى أمام الموقد ، ثم يأخذ في التفكير : إن « كاسبار » الآن رهين حفرة عميقة من الجليد منذ ليلتين ؛ إنه في أخطود سحيق ، هو في نصاعة بياضه أهول منظرًا من قطع الليل الفاحمة ، أوعتمة المغائر الموحشة ؛ إنه ليجتضر في هذه الحفرة منذ يومين ، وسيموت البائس وحيداً جامد الدم . سيموت وهو يفكر في صاحبه الشاب ، ثم لا تكاد روحه تخرج إلى فاطرها ، حتى تحلق فوق الجوسق وتدعوه إليها بدعاء رهيب غامض لا تعرف سره إلا أرواح الموتى حين تنصل بأرواح الأحياء . إن روحه الآن لنهتف بروحه النائمة ولكن في غير ضجة ولا صوت ؛ إنها التود وداعه وداعاً أخيراً ، أو قل إنها تبني تعنيفه تعنيفاً مؤلماً ، أو لا هذا ولا ذاك ، إنها لتصب على رأسه لعناتها صباً ، لأنه لم ينقذ صاحبها من حفرة السحيفة . كان « أورليك » يحس هذه الروح الهائمة الغاضبة في كل ما يحيط به من مكان : وراء الجدار ، وخلف الباب ، وفي صحن المطبخ ؛ وقد كبر في وهمه أنها تحلق وتطير في جو الجوسق كطائر مذعور ليلي يتهاوت على نافذة مضئئة ليلجها . ولقد بلغ الذعر بالفتى لهذه الخطورة أن كان متهيئاً للمواء من خوفه ورعبه ، يريد الهرب والنجاة بنفسه ، ولكن أتى له الجرأة على ذلك ؟ ! لن يجسر على الهرب من الجوسق ، لأنه سيلقى الشبح المهيب خارجه يتربص به الفوائل حتى يكتشف جسد زميله فيواريه حفرة تدفأ فيها عظامه ويستريح رفاقه . وطلع النهار فهدأ روع المسكين قليلاً ، واطمأنت نفسه الراعشة إلى شمع الشمس ، يؤنسها من وحشة

ويؤمنه من خوف . فطعم وأطعم كلبه ، ثم جلس أمام الموقد جلسة البارحة يفكر في زميله المنطوى في غيابة الناج . ويدهمه الليل فيعتاده الذعر ولم به طيف الأمس ، وإذا هو واجف واجف ، وحيد فريد كأوحش ماتكون الوحدة ، وأهول ما يكون الانفراد . هو وحده في هذه الصحراء الثلجية الرحبة على بعد ألقى متر فقط من العمران ، والسكان ، والحياة والحركة والضجيج ؛ وهنا يخطر له أن ينجو بنفسه من هذا القبر الثلجي الواسع ولتَجَرَّه قدماء إلى حيث أُلقت ... ولكن أتى له هذا وهو لا يجزؤ حتى على فتح الباب ؟ . وعند منتصف الليل ، وحين أعياء ذرع الفرفة ، وأنهكت أعصابه خطرات الطيف ، نام المسكين على مسند المقعد ، لأنه كان يخاف سريره كما يخاف مغارة مسكونة بالأرواح . ولكن يالهول هذا الصوت ! إنه ليقزع أذنيه مدوياً مجلجلاً صاحباً غاضباً حتى لياق المسكين أرضاً هو ومقعده ، وبفيق السكب فزعاً لهذه الضجة فيأخذ في نباح مدوٍ ثم يدور بأركان المنزل ، ويجوس نواحي الجوسق كي يعرف مأتى هذه الضجة ومرجع هذا الصوت ، ولكنه حين لم يجد أحداً أقمى بجانب الموقد حذراً قلقاً منتصب الرأس ملتصع العين يزجر ويدمدم . وثاب إلى أورليك هذوؤه قليلاً فراح يلتمس من « البوفيه »^(١) زجاجة من العرق طفق يجترعها كأساً كأساً حتى إذا أتى عليها عاودته شجاعته العازية ، وراجعته حلمه التاهب ، ثم تلاشت مخاوفه في جو من الإيهام والغموض

وأقبل الغد فلم يذق أورليك طعاماً وإنما اكتفى بجمرات « الكحول » تلهب عروقها الجامدة بحميا

(١) استعملنا هذه اللفظة لأننا لم نجد مقابلها في العربية

العظم وترعد الفرائص ، أرغمته على إغلاق الباب وإسقاط المزاليج . فأغلقه دون أن ينتبه إلى أن كلبه « سام » ألقى بنفسه خارج الباب . وترجف أورليك رواعد البرد وهزاهز الفزع فيسرع إلى المدفأة بؤرث نارها ويذكي ضرامها ، ولكنه ما يكاد يفعل حتى يقف شعر جسده هولاً وذعرأ ، لأن يداً خفية كانت تخدش الباب وأنياباً مروعاً كان يعقب هذا الخدش . ويصعق الخوف « أورليك » فيصرخ : أخرج من هنا ، إليك عني . فلا يجيبه إلا أنين ضارع وعواء باكٍ

وهنا . هنا فقط يقادر رأسه كل ما بقي فيه من رشد وسواب فيدور كالجنون على نفسه ويقول : — إليك عني ! أخرج من هنا ! ولكن العواء الباكي ، أو البكاء العاوي لا يلتفت لأوامره بل يدور حول الجدران ، ويحديق بأركان الجوسق وينفذ من تحت الباب . وامتلأ قلب الشاب فرحاً ورهقاً فأسرع إلى منضدة « البوفيه » الملوئة صحنوناً وكؤوساً ، ثم رفعها بين يديه بقوة الجبارة المجانين ثم وضعتها أمام الباب ، فتم له بذلك متراس هائل حصين أخذ يكادس فوقه أدوات المنزل ، وأشياء المطبخ ، ثم فراشه وسريره ووسائده ، ثم كل ما وقعت عليه عيناه من آنية أو آلة أو كرسي حتى لقد تعرم أمام الباب تل ينطح السقف ويسد منافذ الهواء

ولكن نداء السكب الصارخ أصبح الآن خارج المنزل عويلاً مبكياً وأنياباً مشجياً لم يلبث « أورليك » نفسه أن أخذ يجيبه بمثله

وانقضت أيام وليال وهذان العواءان لا ينقطعان عن الترداد والدوي : عواء منتقل سيار من الخارج يخدش الباب ويلطم التوافذ ويهم بتقويض

النشاط ، وتقيم حول دماغه وحواسه سوراً من نسيان ...

وتوالت الأيام على هذا الحال لا يطرق مسمعه هاتف رفيقه الموءود حتى يأخذ في الاجتراع والعب والعل والنهل ، ثم ... ثم يسقط على الأرض سكران لا يعي ولا يحس ، ولكن ما يكاد يستفيق إلى نفسه حتى يدوي في أذنيه النداء الهائل المرعب : « أورليك ، أورليك » فينتصب المسكين على قدميه الراجفتين كأن هذا النداء رصاصة تنفذ في دماغه ، ثم يترنح سكرأ ويميد فزعاً فيستدعي كلبه « سام » إلى نجدته ، ويترأ كض الحيوان وقد أصبح مجنوناً مسموراً كسيده ، إلى الباب يخدشه بأظفاره الرهفة ويقرضه بأنيابه الحادة اللامعة ، على حين ينتصب سيده أمام « البوفيه » مبطع العنق منزلزل الرأس صرخ العطف سكرأ يعب جرعات العرق الحارة كما يعب مسابق بمجهود كؤوس الرطبات الباردة ، ثم هذيان ونسيان وغيبوبة ليس معها فزع المهوم وطائفة المذوم ومضت أسابيع ثلاثة ، فنقد ما عنده من خمر ، وما في « البوفيه » من « كحول » ، وأصبح المسكين وقد اجترع آخر نقطة من العرق أشد تهيباً للنداء المدوي وأرهف شعوراً بالظيف الهاتف : فإن إدمان شهر على الحمرة ما زاد مخاوف المسكين إلا تيقظاً وتركراً في عقله الباطن . فهو يقدو الآن وروح مفزعاً مروعاً لا يفتأ ياصق أذنيه على جدار الجوسق ، أو يرهف سمعه على باب المنزل ، والصوت مع ذلك لا ينقطع دويه ولا يفتقر هتافه : « أورليك » « أورليك »

ففي ذات ليلة قد أخرجه هذا النداء الملح عن طورجيبته ، ابتدر الباب كي يتعرف ذلك الشخص الذي يناديه ، وكى يرغم ذلك الصوت الثرثار على الصمت والحرس . ولكن ربحاً مثلجة ترجف

— لكأنى به هيكل كلبنا «سام» ! قالت هذا وراحت تردد :

— أيها الأب كاسبار ، أين أنت يا كاسبار ؟
وهنا أجابتهما من داخل المنزل صرخة مدوية لا تخرج إلا من فم نور هائج . وأعاد الأب هوسار النداء فارتدت الصرخة المربعة تجلجل في آذان الأسرة . ويعتزم الأب وأبناؤه اقتحام الباب المسدود ؛ غير أن الباب صمد لهم أولاً ثم خضع وانكسر حين دفعوه بقاعة خشبية ، ولكن ما كاد يفتح حتى ارتفعت في الجو صرخة مدوية ، ثم أبصروا وباهول وأغرب ما أبصروا : أبصروا وسط الغرفة رجلاً مسترسل الشعر حتى الكتفين ، طويل اللحية حتى الصدر ، أغبر أشعث ممزق الثياب زائغ البصر هائل المرائى .

لم تعرف الأسرة أولاً هذا الغول البشرى ، ولكن الابن لويس قال :

— إنه أورليك يا أماء . ثم أمنت الأم على قوله :
— نعم يا بنى إنه بعينه رغم شعوره البيضاء .
وسمح أورليك لأسياده بالاقتراب منه ، وأذن لهم بلمس جسده ولكنه لم يجب بكلمة على الأسئلة الملقاة عليه . على أن الطبيب وضع حداً لكل هذه الشكوك حين أعلن للأسرة في الغد أن «أورليك» مجنون .

ولكن أين رفيقه الكهل كاسبار ؟ أى حادث عصف بعقل المسكين ؟ ثم من قتل الكلب الأمين ؟ ؟

تلك أسئلة لم تجد لها الأسرة أجوبة وأسفاه !
كمال الحبرى « حلب »

الجدران ، يقابله عواء من الداخل ، لا يفتأ صاحبه وهو يتبع حركات الأول ينشر أذنيه على الحائط أو يكدس الأشياء على التراس ، أو يبادل العواء الخارجى : نباحاً بنباح وأنيناً بأنين

ويعسى السماء ، وإذا صاحبنا «أورليك» لا يسمع البكاء المدوى ولا الأنين العاوى ، وإذا سكون طويل عميق طويل يرين على جو الجوسق . هنالك يتهافت المسكين على مقعد خائر العزم موهون القوى مصعوق الرأس ، ثم يسلم نفسه إلى نوم عميق غلاب ... ويستفيق «أورليك» بعد ساعات ، وقد تكون أياماً ، فارغ الرأس من الرشد ، خالى الدهن من الذكرى ، كأنما أفرغ كل ما فى دماغه فى هذه النومة التى غرق فيها ، ويحس بالجوع ينهش معدته فيقبل على الطعام إقبال الهيم

وأقلع الشتاء بقضه وقضيضه وتلججه وبرده ، فمادت المسالك ممهدة والمصاعد معبدة ، وأصبح معبر «جه مي» سالك الطريق ذخار الحركة فتتخذ أسرة «هوسار» سبيلها إلى جوسقها الجبلى . وكانت طيلة الطريق فى حديث الدليلين اللذين تأخرا هذه السنة عن النزول لاستقبالها مع أن ذلك دأبها كل عام . وأخيراً لاح لأسرة «هوسار» شبح الجوسق مقموراً بالثلج محاذ الجهات بالجليد ، ولكن بابه كان مغلقاً ، وخيوط دقيقة من الدخان كانت ترتفع من مدخته . ويقترب الأب هوسار من عتبة الجوسق فإذا هيكل عظمى لحيوان نافق بطالع بصره . وتحقق العائلة فى هذا الهيكل العظمى الذى تناوشته قشاعم الجبال ثم تقول الأم «هوسار»